مجالس اناتول فرانس

— ٢ —

كانت مجالس اناتول تغص بكبار الناس عقائل وأوانس وسادات مشهورين من رجال السياسة الى الأدب الى رجال الفن الى الصحافة والطباعة الى الشعراء والشاعرات والكتاب والكاتبات الى المشتغلين بالمشرقيات ، وكانت هذه الطبقة ملازمة له كل اربعاء ، ومنها من يتناول الطعام على مائدته ، ومن جملة من كان يغشي مجلسه المفيد جوريس وطومسون وكليمانسو وبريان ولوتي وسوللي برودوم وريجان ولويي فوللر وهالفي وبريال ، ولم ينقطع عن مجلسه سوى لميترو باريس وموريا س وكوبيه لانه تطوع في قضية دريفوس فأصبح في نفوسهم شيء منه ، ومع هذا كان يجعل لكرام العقائل والغادات الفاتنات نصيباً من الكلام وربما فاه أمامهن بامور قد تستنكرها العادة والعرف .

تكلم مرة على البكارة في العوانس وهزأ بها ضمناً ، وقال ان الفتاة اذا بلغت الثلاثين كيف يطلب منها وهي بهذا الاختلاط ان تحتفظ بعفتها الخ . وذكر في مجلسه ذات يوم ان فتاة خطبت وانتظرت خطيبها مدة الحرب اربع سنين لم تلبس ببنت شفة ، وقالوا ان من كانت على هذه الصورة لا بد ان تحفظ بعد العهود الزوجية ، فقص اناتول قصة شاب انكليزي من أصحاب الأطوار الغريبة ومن ارباب السعة . قال انه خطب فتاة وكان غيوراً جداً وادعى ليلة البناء عليها انه طلب الى مكان بعيد وان شرفه يقضي عليه بالاسراع . فزوّد خطيبته مالاً تعيش به وسافر في الارض خمس سنين ، ثم جاء الى لندرا وعاد ثانية مدة طويلة ، ثم عاد الى بلده واكترى دكاناً في حي خطيبته واخذ يستقري أخبارها ، فعرف انها صابرة على الفراق تنتظر أوبته ، وانه دخل عليها الدار بعد مدة وقد علاه المشيب وقال انه وان أضاع كثيراً من السنين في البعاد الا انه يرجو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان يعيش في السنين الباقية له مغتبطاً . قال اناتول : ان هذا الرجل بعد التجربة الطويلة يكون من حظه ان لا تخونه زوجته ، اما ان يكون على ثقة من ذلك فليست موضوع بحث .

كان فرانس عجباً في نقده المجمع العلمي الباريزي ، يصف اعضاءه بانهم أناس رجعيون ، وانهم يؤلفون دولة في وسط دولة ، وانهم يتألفون رجال السياسة بلباقة . وانهم لا يعنون بالانشاء والتأليف وانهم اعداء الحكم الجمهوري ، وهم يسكنون في قصر من قصور الأمة ، ويتمتعون بامتيازات طيبة ، والوصايا تغدق على مجمعهم من كل صوب وحدب ، فهم أغنياء لا تخضع موازنتهم لمراقبة الدولة ، وينفقون الأموال والجوائز على الجمعيات الدينية وعلى الناقمين وارباب الثقافة التافهة ، والمجمع آلة فساد ادبي لغوي ، وأشهر ساسة فرنسا يقدمون على أنواع الدناءات والسفاسف لينالوا شرف الدخول فيه .

وسألته امرأة اميركية لها صلات كثيرة بالماليين — وكان يهزأ بها في باطنه ، فاذا غشيت مجلسه يسألها عن اسهم شركات الذهب وعن اسعار الاوراق المالية والسندات — قائلة انني لم أذهب قط الى المجمع العلمي فما تصنعون هناك اذا اجتمعتم . وكان فرانس منقطعاً عن المجمع العلمي منذ مدة ، فتلقى كلامها بدهشة وأجاب بقوله : اننا ايتها العقيلة نخوض في الموضوعات السامية ، ونحاول ايضاً ان نحل المسألة التي طالما ذهبت فيها الآراء مذاهبها ، وأعني بها خلود الروح ، وأحياناً نلقي نظرات وتأملات في الجمال على ما عرفه أفلاطون ، فنحن ابداً في نظام غير مادي ، نبحث فيما وراء المادة ، وحديثنا في السموات العلى . فدهشت السيدة لمقاله ، وأعجبت بهذه الجلسات التي يجلسها رجال المجمع ، فعاد هو وعقب على قوله : لا ياسيدتي ليست جلسات المجمع على شيء من الجمال ، فلا تصدقي شيئاً من ذلك ، فانا في الحقيقة نتكلم قليلاً ونظل سكوتاً هناك وكثيراً ما نشعر بالبرد لعدم التدفئة في قاعات المجمع . ولما كانت جمهرتنا من الشيوخ ترينا محزونين فانا هناك نحمل معنا أحقادنا وهمومنا القاسية ، ونحن مخلوقات على صغرنا اي نحن أناس يقل فينا الذكاء ، فجلسات المجمع العلمي موحشة لا تخلو من رقاعة .

وقال مرة انه لم ينتفع من لقب المجمع العلمي الا يوماً واحداً وذلك انه كان مع فتاة في مكان لا تسوغه القوانين العامة فجاء الشرطي فلما اقترب منه ، اخرج فرانس من جيبه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بطاقته وشفعها بريال ودفعها له ، فسلم الشرطي تسليم اجلال ، وقال : ولكن ياسيدي ان فسطان السيدة احمر وهو يبدو عن بعد كأنه علم فقال لا بأس . فان الفسطان سيرفع عما قريب . وهذا من غرائب فرانس و يستدل من كثير من وقائعه انه كان يعبث بمصطلحات المجتمعات ويضحك من القوانين والعادات وتغلب عليه امور الحس .

تكلم يوماً على الشاعر فقال انه اكبر من الملك ، وهو رب في الارباب فان قريحته توليه سلام القلب وافراح الفكر ، فهو بدون ان ينقلب من سريره يكتشف مثل خريستوف كولمبس قارات جديدة ، وبدون ان يتحرك يفتح مثل شارلمان بلاد الامم الاصلية الاربع ، ومن دون ان يبتعد عن منضدته يحب جميع النساء مثل دون خوان . فالناس من اجله يكتشفون الجمال ، وينفذون المشاريع العظيمة ، وهو الذي يرى ان هيلانة فتانة وكليوباترا مملولة ، وهو يلتقط جميع الحركات ، و يرى جميع ضروب الحياة ، ويستمتع بكل ما في العالم من سرور وهو من القدرة على التصرف بحيث يجمع الكلمات ولكنه يبدد صورة العالم .

وقال مرة اثناء كلامه على فيني الشاعر : ما من احد يتلو شعره ولكن الناس كلهم يعرفون اسمه ، وهذا المجد خاص بالشعراء عامة فهم أداة تعين العشاق على الحب وهم سماسرة من الطراز الاول ، وأرى ان الناس اليوم يحبون قليلاً ، فان الناس يتلاقون ويتضامون ولكنهم قلما يحبون ولذلك تخلوا عن تلاوة أقوال الشعراء . واي امرأة تستطيع اليوم ان تكرر كلمة شقيقة شاتوبريان وهي تحتضر قلقةً امام الراهب بقولها : آه ايها الأب ماذا اقول للمولى اذا مثلت أمامه وانا لا أعرف غير أبيات من الشعر . اي انها كانت تحاذر ان تلقى الله وهي لم تتعلم غير الغزل .

* * *

كان فرانس خلال الحرب العامة يلتزم الصمت ولا يجاهر بافكاره بعد ان رأى ماحل بصديقه جوريس من الاغتيال ، بل كان كثيراً مايصانع القائمين بالحرب ويمتدحهم ويثني على اعمالهم . وقد رأى ذات يوم فتاة لصديقه وراويته تحمل اليه باقة زهر فتذكر قصة وقال : هل في وسع الفتيان والفتيات ان يقضوا ياترى بتأثيراتهم على الحرب ، فقد حدث في الحرب الدينية بين الكاثوليك والبرتستانت ان الهوسيين في فاجعة كوتزبو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ضاق خناقهم من محاصريهم ، فأرسلوا ذات يوم أولادهم ذكوراً واناثاً من سن السادسة الى الثانية عشرة يحملون أغصان الزيتون ، فدهش المحاصرون من هذا المشهد ، وكفوا عن الطعن بحرابهم ونشابهم ، وتصالح الاخوان المتقاتلون على الدين ، وكان ذلك اول مرة تغلبت فيه الشفقة على القسوة . وقال : ان عصر الهوسيين كان متوحشاً ، ونحن ارتقينا منذ ذلك العهد ، ولا نستطيع ان نتصور اليوم ان جيشاً من الأطفال ذاهباً الى الالمان ، فانهم قبل ان يلمحهم العدو تكون المدافع قد أتت عليهم بحملتهم ، واذا ساغ تحريك عواطف الجندي القديم فهل في المكنة تحريك عواطف السياسيين وأرباب الاموال ، فنحن قد تمدنا ولذلك ليس للعواطف سلطان علينا .

حدث راويته قال : ان اناتول كان ذات يوم يمتدح الماضي بفصاحة زائدة وانه كثيراً ما كان يحب المتناقضات ويوردها مختاراً قال : أصبحنا بارتقائنا اقل صبراً من أجدادنا واقل قابلية لتحمل المكاره ، فان المدنية لا تساعد على توسيع الأمل ، وتحمل الشدائد ، لانها تظهر الحقيقة على علاتها ، ولذا يذهب بي الفكر الى الاسف على الماضي ، وعلى الرغم مما تم من المخترعات والمظاهر والمعارف المنوعة ، وعلى الرغم مما اخترع من الطيارات والغواصات والاسلاك البرقية ، لا أرى اننا بلغنا من حيث المعنويات ما بلغه أجدادنا . فقد كان للمجتمعات قديماً شراب مسحور عجب في اسكاره ، وبلاسم مؤثرة تعينها على الاحتمال . ولم يكن الامل والحرية قد افقرت منهما الارض ، وكان آباؤنا يعترفون مثلنا ان الحياة ممزوجة بآلام ، بيد انهم كانوا يرون انه لابد ان يعقبها سرور دائم ، فكان الشر في نظرهم كظل صورة جميلة ملئت بالمنازع ، والالم شارة اصطفاء ، والموت ممر الى النور ، وكانوا على ثقة اذا رفعوا عيونهم خلال صلواتهم ان عيوناً أخرى تأتيهم من السماء فتقابلهم . واي عزاء للنفس أحسن من الاعتقاد بان صوتاً الهياً ينادينا يوم الحشر في قبورنا ، ويتجلى لنا تعالى ولوليعاقبنا بماجنيناه . وأحب ايضاً ان أعتقد ان الارض خلقت خلقة اسمية وانها متصلة بالسماء كل الاتصال وذلك بطائفة من الملائكة او وسطاء الشياطين وانها في وسط الوجود .... ولكم كانت الأوهام عذبة في مذاق من يعانون المصائب ، ونحن نعلم الآن ان هذه الكرة الارضية ليست سوى نقطة من الطين في محيط غير متناه مما يتألف منه العدم . نعرف هذا ونعرف ان الانسان ليس من العوالم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المختسارة ، بل هو درجة من السلم الكبيرة في العوالم .... ولم يبلغ الانسان من النظام مبلغاً يؤهله الى فهم الحقيقة ولا يرى ولن يرى ابداً شيئاً من الحق فهو مخدوع وسيخدع على الدوام . وذكاؤه اوصله الى معرفة الفناء ، وهو في الواقع ذكاء محدود لا يطلعه على شيء اللهم الا على أوهام في الحواس .

بقيت مسألة الوجدان فانها ما زالت منذ عهد (كانت) الفيلسوف موضع نظر الفلاسفة الملحدين ، يدعون ان صوته يسمع فينا ، وهو يملي علينا واجباتنا ، وينادينا حي على المعنويات ، ويدعونا الى ان لا نعمل بالغير مالا نريد ان يعمله معنا . وهكذا فانا نشاهد الفيلسوف رنان مثلاً يريد الاحتفاظ بمظهر المقصد الاسمى ، فبعد ان انكر وجود ادنى أثر للارادة الالآهية في العالم صادق على فكرة الوجدان الذي يستلزم فكرة وجود الاله تعالى . وهذا يذكرني ببعض الفلكيين الذين ظلوا على نصرانيتهم يقومون بما تفرضه عليهم و يؤكدون انه اقتضى للنور مليون من السنين حتى وصل الينا ، وان الشمس ونظامها تسيران في اللانهاية منذ مليارات من القرون ، ومع هذا فانهم لم يبرحوا يعبدون الاكاذيب التي اتى بها ذاك الشيخ اليهودي الذي زعم ان الارض خلقها في سبعة ايام و يؤكد انه أدار الشمس حول الارض وان اصل الخليقة لا يرد الى اكثر من سبعة آلاف سنة .

وقال يوماً : الناس في غفلة عن ان العالم ينقض و يتداعى فهم لا ينظرون الى ما يحدث مع ان الحالة بادية محسوسة فالعالم بل وكل عالم لا يعيش اذا لم يجعل الكمال له غاية الغايات ، بيد ان المقصد الأسمى على ما يظهر آخذ بالنفاد ، مشرف على الانتهاء . وما من امر يأخذ بيدنا ، وما تمدننا المرائي سوى ركام من المظالم آخذ بالخراب ، فقد كان الناس فيما مضى يعيشون بالمعتقدات والرجولية والذكاء ، فكان عيشهم وحشياً ، ولكنهم يعيشون بقوة ونشاط . ولا يعيش الناس اليوم الا بالمال ، وكل أمانينا منصرفة الى الاستمتاع . كانت الكلمات المحبوبة التي تتعالى في القرون الوسطى عبارة عن تأليف الاغاني وعن الابتعاد عن الاختلاط . وأقصى غايانا اليوم ان نبلغ ما نريد وان نخادع ونخدع وان نضارب ونضرب ولا شيء يكبح من جماحنا . والناس لا يحسنون التفكير ولا يجيدون الكتابة . وما خلا هذه البلاغة السياسية التي هي فن الغش بالألفاظ وصوغ الوعود بدون القيام بها ، والقاء البارود في العيون ، والاختفاء وراء حجاب لا شيء يبقى و يدوم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد خلف ارباب الأموال فرسان القبر المقدس وكبار العلماء وعظماء المحاربين والقديسين والأبطال وأصبحت المجتمعات في ثورة متقدة لانها لاتقوم على اساس، ولانها خالية من رأس مال حقيقي في الأخلاق وكل انسان يطالب بالسعادة، ويعتقد انها عبارة عن ان يأكل طيباً وان يقتني مركبات لحسابه، اما الامل والمفاداة والصبر والشعور وانها فرع من أسرة في مجموع العالم فهذا ما لا بال له . ولا نزال نلجج بكلمات مبهمة لا محصل لها كالحب والاخاء، ولكننا أضعنا معناها او وضعنا لها معنى نرتجله وهو الفدامة بعينها . أصبح المجتمع على خطر لانه ضعف ضعفاً طبيعياً وتبدل لمكان المدنية من التسرب اليه وهو يقضي بامراض السرطان والسل، وهو الى المرض أدبياً لانه لا يقوم على أساس راهن . وتكثر في هذا المجتمع المصائب والنوائب، ولذا كان حرياً بالهلاك، وذلك لان كل ما هو ماثل لا اثر فيه للفضيلة . وعز فيه ظهور العظماء من الناس وانقطعت الحماسة الحقيقية .

ولما قال له مخاطبه : ان حكمك على هذا العصر قاس ياسيد، اجاب : وبعد فما أعمل وانا لم أرزق ملكة الاستسلام للأوهام، وهي من العوامل المساعدة على الحياة . ولما كنت أنظر الى الامور نظراً واضحاً فقد ارى أناساً ليست لهم اقل قيمة في الأخلاق والعلم وهم مع هذا يضطهدون غيرهم . واذا طمحت المجتمعات الى ان نظل قائمة بتعذيب الضعاف فعلى الاقوياء ان ينتجوا و يبرزوا و يخلصوا لما هم بسبيله ليكونوا اهلاً للامتياز به من الخصائص، بيد اننا لانفتأ نعيش في الظلم على حين نتساوى في التوسط والاعتدال وفي كل مكان نجد للاتجار بالسلع الرديئة رواجاً، وابنا نطلعت ترى الطمع في الاستمتاع على صورة بشعة مفرطة آخذاً باعنة الناس . قال : واني لأرى المصانع القديمة آيلة الى مرض شديد ولا أعتقد ان في المكنة احياء الأموات، وارى شعلة الدين والحكم المطلق، وكانت مما يعز على بلزاك، قد اخذت تنطفئ، اما الجمهورية التي هي طراز من الحكم طالما دعوت اليه، فالظاهر انها لاتحوي عناصر لمقاومة الاعاصير، بيد ان تبديل الحكومات ليس الا ظاهرة من الظواهر، والأزمة عمت وطمت، فنحن يا صاح في حالة تشبه حال العالم الروماني غداة غارات البرابرة . عالم ينتهي وآخر يبتدي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن آرائه (بتعريب فاخوري) : ليس التاريخ بعلم بل هو فن ، لا ينجح فيه الا صاحب المخيلة ، ينسخ المؤرخون بعضهم عن بعض فيكفون انفسهم العناء ولا يتهمون بالغرور . اقتدِ بهم ولا تكن مبتكراً ، فالمؤرخ المبتكر موضع ريبة واحتقار واشمئزاز عند الناس كافة . ومما قاله ان التاريخ ليس مجموعة أقاصيص اخلاقية او مزيجاً من الحوادث والخطب البليغة فقد لا توجد فيه قطع بيانية جميلة ولكن لا ينبغي ان نلتمس فيه حقيقة ، لان الحقيقة هي اظهار مابين الاشياء من نسب لازمة ولا سبيل الى اثبات هذه النسب لان المؤرخ عاجز عن اتباع سلسلة العلل والمعلولات . فليس التاريخ اذاً بعلم لانه مقضي عليه بعيب في طبيعته ان يلزمه غموض الكذب وان يعوزه السياق والاتصال اللذان لا معرفة حقيقية بدونهما . . التاريخ ليس بعلم لان الثورات والحروب لا تضبط بحساب . قال : على مَ تؤلف تاريخاً وليس عليك الا ان تنسخ من أشهر كتب التاريخ كما هي العادة ، ان كان عندك فكر جديد او رأي خاص ، او كنت تظهر الناس والاشياء من وجهة غير مألوفة . فانك اذاً تباغت القارئَ والقارئُ لا يجب ان يباغت . هو لا يلتمس في التاريخ الا الحماقات التي يعرفها فاذا اجتهدت بتعليمه كانت ثمرة جهدك ان حقرته في عين نفسه فأغضبته . لا تحاول إنارة فكره والا صرخ قائلاً : انك تسفه عقائده .

وقال ان الحرب اليوم عار الانسانية وكانت من قبل فخرها ، لقد أوجبتها الضرورة على الممالك فكانت مربية النوع البشري الكبرى . بها مارس ابناء آدم الفضائل التي تشاد عليها الحضارات وتدعم بها قواعدها ، علمتهم الصبر والحزم والاستهانة بالمخاطرة ومجد التضحية . ويوم دحرج الرعيان قطع الحجارة الضخمة ليبنوا منها سوراً يحامون وراءه عن نسائهم وثيرانهم ، أنشيءَ اول مجتمع انساني وضمن ترقي الصناعات . وهذا الخير العظيم الذي ننعم به أعني الوطن او المدنية او ذلك الشيءَ الجليل الذي عبده الرومان ورفعوه فوق الآلهة انما هو ابن الحرب .

وقال في هذا المعنى : لا مراء في انه ستقع ايضاً حروب كثيرة فان الغرائز الوحشية والاطماع الفطرية والكبرياء والجوع التي أتلفت العالم خلال عصور متطاولة ستستمر على إفلاقه ايضاً . وهذه الكتل البشرية الكبرى الآخذة اليوم في التألف لم تجد بعد قاعدتها ولم توفق الى توازنها . وكذلك لم ينتظم تداخل الشعوب بعضها في بعض الانتظام الكافي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لضمان الرفه العام بحرية المبادلات و يسرها كما ان الانسان لم يصبح بعد محترماً في نظر الانسان ولم تتساو أجزاء البشرية في دنوها من روح الاشتراك والتعاون لتكون جميعاً كالحجيرات والاعضاء في الجسد الواحد ، وليس بمقدر حتى لاحدثنا سناً ان يشهد ختام عهد السلاح . بيد ان تلك الايام السعيدة التي لم نعرفها نحن نحس بمجيئها ، فاذا مددنا الى عالم الغيب هذا الخط الذي نرى بدايته كان في وسعنا ان نرى مواصلات أوفر واكمل بين الامم والشعوب ، وشعوراً أعم وأقوى بالتضامن الانساني ، وتنظيماً أفضل للعمل ، و بالنهاية قيام (الدول المتحدة) في العالم بأسره ، وسيتحقق السلم العام ذات يوم لا لأن البشر يصبحون خيراً مما كانوا (هذا لم يؤذن لنا ان نرجوه) بل لأن نظاماً شديداً للاشياء وعلماً جديداً وضرورياً اقتصادية ستلزمهم بحالة السلام .

* * *

هذه بعض جمل اثرناها مما نقل من كلام اناتول فرانس في مجالسه ونظن انها تمثل لكم روحه ومنازعه في الحياة ويتلخص منها انه من اصحاب الشكوك يشك في كل شيء و يقدح في المدنية الحاضرة و يسيء الظن فيها ، فليس هو اذاً من القصصيين العاديين الذين أنبغهم الغرب ، بل هو عالم يحسن بث علمه في الجمهور ، وعلمه هذا تقرأوه في قصصه منثوراً نثر الذهب على نمارق من مختلف الزهور ، ولا تتفهمها على جليتها الا اذا قدرت لك تلاوتها باللسان الذي كتبها به ابوعذرها ، وهو الغاية في الإبداع والبيان وجمال المأتى .

واذا رأيت الكاثوليكي المتدين قدتنقبض نفسه لذكره فاعرف ان اناتول لم يترك للصلح مكاناً مع اهل الاديان . واذا سمعت بان مالياً غنياً يحتقر افكاره فاعرف ان اناتول حاول ان يسقط هذه الطبقات لانها جائرة على مايرى على المجتمع . ومعظم ما أصابه من الشرور كان بصنعهم و كزازة ايديهم ، وما ارتكبوه من الموبقات للاحتفاظ بمكانتهم والاستمتاع بشهواتهم . واذا قيل لك ان بعض طلاّب التوسع في فتوح الممالك احصوا عليه أنفاسه في حياته ، وخافوه وعدوا موته نعمة عليهم فأيقن انه حاربهم طول حياته ، يريد ان يقنع كل مالك بملكه ، وترجع كل دولة الى حدودها الطبيعية . والحاصل ان اناتول عادى كل الطبقات في الباطن وان ألان لها في الظاهر أساليب الكلام ولذلك قلّ في قومه خصوصاً أنصاره وأعوانه ، وزامر الحي لاتطرب مزامره ، ورحم الله عمر بن الخطاب إذ قال ماترك الحق لعمر من صاحب ، فالناس مذ كان اول اجتماعهم قد يرضون عمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يرائيهم ، ولا يرضون بحال عمن يتقدمهم ليقودهم الى الخير والسلام .

وبعد كتابة ما مضى القول فيه حملت جريدة لنوفيل ليتر ير Les nouvelles littéraires الباريزية مقالة لروزني البكر من اعضاء مجمع كونكور العلمي ، جاء فيها ان امرأة من مدهشات النساء كانت هي الملاك الحارس لأناتول استولت زمناً على عقله ، فكانت تصرفه كما تريد ، وتعنى بمادياته عنايتها بمعنوياته ، تتعهده في لباسه وهندامه ، وتحمله على حضور جلسات المجمع العلمي ، وتفصل في قضاياه مع المتجرين بادبه لتحفظ له حقوقه بما تعقده لمصلحته من الشروط ، ولتكسبه من قلمه أقصى مايمكنه احتجانه من مال ، وكانت تريده من حيث المعنويات ان يكتب كتابات حية ، بعيدة ماأمكن من مقتبسات الكتب ، وقد وُصف اناتول بانه أرضة المكاتب او جرذ الخزائن . ومع هذا حملت كتبه كمية وافرة من آراء الناس وعتيق فلسفتهم . ذلك لان اناتول كان بطبيعته مهملاً متوانياً يرضيه ان يضيع اوقاته في معالجة النصوص التي أكل الدهر عليها وشرب ، وهو على نوع من البلاهة يحملق فيما يشاهد ، ولا حظ له من امور الدنيا ، فكانت العقيلة تشذب من حواشيه ، وتحمله على الجادة لتخلد اسمه ، وتدخل النظام في عمله ، وتنحيه عن موضوع المحاورات الكثيرة فيما يكتب ، وتبعثه على ادخال الحياة في كتاباته ، وتجد كل الجد ان تلقي في روعه قصصاً حية قائمة على الملاحظة مملوءة بالغرام والحب ، وكان معها اذا ضايقته يغضب و يقف باهتاً لاحركة ولاسكون ، لانه عرف بميله الى الكسل ، ولا يتلذذ الا بقراءة المفكرات والامالي القديمة ، ينشر ما ينم عن تحقيق علمي ودقة في الانتفاع بالأسفار ، والاخذ بمذاهب الفلاسفة .

وكان يضيق صدره من معالجة قصة جديدة وكثيراً ما يقول : انا لاتطمئن نفسي اذا حاولت ان اقص شيئاً من عنديآتي ، بل خلقت في حاجة لان أقع على قصة كتبت بقلم غيري ، وهيأت في الجملة . اما صديقته فكانت تعذله وتسوقه الى وضع قصصه مباشرة من تلقاء نفسه ، وتطلب منه عملاً وحباً ، وبعملها ومراقبتها جوّد اناتول روايات تايس ، والزنبقة الحمراء ، وسلسلة قصص برجر به البديعة ، وكان من احسانه فيها مكافأة له ومكافأة لها ، ولكن ذلك لم يمنعه من الرجوع الى مايحلو له من القصص البالية . وبالجملة فقد كان لها تأثير حقيقي في فن اناتول ، وهي لم تعدّل اصول عمله ، ولاحسنت ذوقه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بل بددت فيهما ، وحقنتهما بدم طري ، فأسدت اليه معروفاً لا يبلى على الايام ، حتى اذا أطلق وشأنه أوشك ان يعود « جرذ كتب » مع ما يتخلل عمله من فترات وخلاعات . كان لا يتعب مما يدون من مطالعاته ، ولا يربأ بنفسه ان يكون عبد الكتب القديمة ، ومغرماً في التحدث بما كان يقرأ من الأسفار .

قال : ولقد كان لهذا الملاك الحارس بعض التأثير في آراء اناتول السياسية الظاهرة . قلنا الظاهرة لانه كان من المتعذر علينا ان نعرف حقيقة آرائه ، وكيف يتصور في هذا السفسطائي العام ان يدخل في حزب او يدين بمذهب اجتماعي ، فقد رأيناه الا قليلاً من حزب البولانجيين لما كانت هذه العقيلة منه . فلما حدثت قضية دريفوس وتحزبت له ماشاها اناتول ايضاً ، وأصبح اشتراكياً عندما اخذ جوريس يعد من ندماء بيت السيدة ، وكان في آخر مرحلة من حياته يميل الى الشيوعية السوفيتية حتى قال علناً : اني احب لينين حباً مازج قلبي . ويرى من المضحك ان يتشدد المرء في الاحتفاظ بمعتقده ، وكل عمله خروج على المعتقدات ، وما كان أمام المعتقدين الا هازئاً او مشفقاً او خائفاً .

وقال ، بعد ان وصف كيف كان ذاك الملاك الحارس يفتح قصره برضى زوجه لاناتول وضيوفه وكانوا علية الطبقات السياسية والعلمية والفلسفية وفيهم أجمل العقائل والاوانس : ان اناتول كان ناكراً للجميل وذلك انه لما بلغ قنة الشرف ، واغتنى بتآليفه ، وأصبح يأتيه منها ريع عظيم ، نفض يديه ممن عملت كل شيء للاخذ بيده ومزجت شخصيتها بشخصيته ، فأصبح لا يحب ان يراها ، وتركها كأنه لم يغن امس في حماها . وما يدريك انه كان حانقاً عليها على غير رضاه ، لانها حاولت دون سيره السير الطبيعي . وحقيقة انها منذ اخذت بزمامه انشأ في الأحايين يبدو كأنه يحاول التفلت من قيد ، ويسير على غير هواه وميله . لقد كان الكسل حبيباً الى قلبه ، والعقيلة تحاول ان تطرد عن فطرته تشرده العقلي كما تطرد ربة الدار نسيج العنكبوت عن متاعها . انها لم ترم الى تهذيبه ، اما هو فاستطاع بدون عائق ولا هم كثير ان يتذوق طعم الجمع والبحث الى آخر ايامه اه .

* * *

هذا ما قاله روزني في اناتول وكتب جورج لوكونت من أعضاء المجمع العلمي البارزي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في آخر عدد صدر من مجلة لاروس الشهرية المصورة Larousse Mensuel Illustré خلال كلامه على القصاصين في فرنسا ان اناتول فرانس من الرجال الذين أحرزوا مكانة للخطة الجريئة التي ساروا عليها في المعارك السياسية الرنانة التي وقعت في عهدهم . فهو بلا جدال كاتب مجود بالنظر لما يتخلل افكاره من حرية تنطوي على جرأة جميلة ، ولادائه المعاني الجليلة المفرغة في ديباجة ناصعة كاملة ، ولسعة معارفه الدقيقة . واذا ذكر اناتول فلا يذكر الا بالاعجاب والاحترام . وهو ممن رنّ صدى صوته الساحر في القاصية . وربما وضعوه في مكانة عظيمة قد يظن ان التاريخ الادبي لا يقره فيها جملة . وبلغ من الناس بالنظر لما خصت به أقاصيصه من السحر البراق ، ولاحكامه الحرة ولدعابته في نقده النفاق والمظالم الاجتماعية ، ان اصبحوا لا يرون فيما خطته انامله ما كان فيه ناسجاً على منوال غيره مقتبساً عن الكتب على سبيل الذكرى . ولا مراء في ان اناتول قد قيد نفسه في حدود خزائن الكتب اكثر من تقيده بمشاهد الحياة ، فهو نظار في الاسفار اكثر مما هو نظار في الانسان ؛ هو مبدع في أحاديثه ، رزق ذاكرة مطواعة مجهزة اجمل جهاز علمي ، وكان يطرب في التبسط في ايراد آرائه فيما يقرأه من الاسفار ، وفيما سقط عليه من امور تافهة في ذاتها ، وهو يوردها باسلوب الحاذق الفنان ، ولذلك قلما كان يهتم ليستمع لما يقال ، او ليجول في علم الحال كل مجال . ولما كان يأتي بشيء كان مستمعوه الواقفون على طريقته في صناعته ، وعلى نظامه في أفكاره ، يتساءلون من اي كتاب مجهول صاد تلك النكتة الشاردة ، وحمل تلك الفائدة الدقيقة باتر . وماعدا كتبه التي أوحى بها تاريخ المعاصرين ما كان المعجبون به ينجحون ابداً في سلخ هذه الصورة عن كتاباته مهما بلغ من سحرها وجاذبيتها . ولذلك كانوا يدعون ان السخرية البادية في كتبه قد اخذها عن فولتير وعلى طريقته سار و بهديه اهتدى . اما لغته السهلة العذبة فهي لغة احسن كتّاب القرن الثامن عشر اه .

هذان رأيان لادبيين كبيرين من معاصري اناتول وهما احدث الآراء فيه . واذا جاز لمثلي ان يلقي دلوه في الدلاء امام اولئك الفحول ، فانا انظر اليه من الوجهة التي تحدث أفكاره فيمن يطالعها منا مطالعة امعان لا مطالعة تسلية وتفكهة ساعات الفراغ . انظر في تأثيراته بعد الذي تلوته من مجموعة تآليفه التي انتهت اليّ في العام الغابر وهي في اثنين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وثلاثين مجلداً ، وفيها كتابه الذى اسماه (الحياة الادبية) وهو يدخل في اربعة مجلدات عرض فيه لكتاب عصره وأدبائه وشعرائه وقصاصيه وممثليه ، فجاءت في مقالاته عبقة من النقد الشهي نشرها اولاً في جريدة الطان ايام كان يتولى فيها منصب الناقد الادبي . ثم جعلها في مجلدات برأسها على نحو مافعل صديقه من قبل جول لميتر ، ونشر في الطان مقالات في أدباء عصره ثم كسرها على ثمانية مجلدات وسماها (المعاصرون) . ولهذه المقالات مدين اناتول فيما أحسب بالجزء الاعظم من شهرته الاولى .

والشهرة رأس مال الكاتب في الغرب وكم كاتب لم تكتب له شهرة مستفيضة فبقي ذكره مطوياً عن اهل جيله والأجيال التالية . اما الباقي من أقاصيصه وروايانه فهي المرآة الصقيلة التي تعكس على انظارنا نبوغه وعبقريته تراه تارة يأتي بقصة قد تظنها تافهة بادئ الرأي حتى اذا سرت في تلاوتها شوطاً ورأيت اناتول يحليها بدرره الغوال التي ظفر بها خلال مطالعته وعد ذلك (روزني ولوكونت) المشار اليهما من موجبات مؤاخذته ، تستعظم عمل المؤلف فلا تعرف بماذا تصف قصصه ، اذ تشهده يورد عليك بالمناسبات مسائل اجتماعية وتاريخية واخلاقية وعلمية ومادية ، وسدى اكثر مايكتب ولحمته من هذا الطراز الممتاز ، فهو ملمّ واي إلمام بعامة علوم البشر ، يعرف الناس من قرب ومن بعد لا كما حاول ناقدوه ان يصوروه ليسلبوه محامده ، ويشوّهوا من طرف خفي محاسنه المجسمة للفكر والنظر ، ويعدوا غرامه في الاخذ عن القدماء واستخراج المدفون من الآراء من أسباب ضعفه ، وربما حسب المتجرد عن الغرض ان ذلك كان من دواعي فخره وعظمته .

الكتاب الجيد هو الذي يقفك على فكرة جليلة ، ويقرب من ذهنك علم مالم تكن تعلم من أيسر سبيل ، لا الذي تنتقل بين سطوره وصفحاته فتحدث لك تلاوته لذة موقتة ثم تنساه او تتناساه بحيث لا يضرك علمه ولا جهله . يختص كل واحد من القصاصين في الغرب اليوم بناحية من نواحي المجتمع الانساني يلونون الكلام فيه ، والقصة عندهم هي الاداة الكاملة التي تفعل في اصلاح الجماعات والافراد فعلاً محمود الأثر في الجملة ، ولكم هذبت من حواشي مجتمعهم وعلمت جاهلهم وأصلحت بما تبث من معوج شؤونهم . اما أقاصيص اناتول فهي الادب السامي والافكار النضيجة الطريفة ، والحرية المطلقة النادرة ، ولذلك لم ير خصومه او من كان في حكمهم ، الا ان ينالوا منه من ناحية ضعف تخيلوها فوصفوه بانه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ماجن هزأة هدام للنظم الاجتماعية ، والمنصف يتجلى له في تضاعيف كتب اناتول ان أسلوبه الممتع لا يبلغ عقول من يريد تهذيب عقولهم ان لم يبرز بهذه المظاهر المنوعة العجيبة . ولطالما شوهد كأنه يعبث وهو يجد ، وكم تخيل انه يضحك وهو في الواقع يبكي .

للاصلاح طرق وطريقة اناتول راقت البعيد والقريب ، بيد ان القريب قد يبدو منه بعض تأفف لدن سماعها ، لمكان التقاليد والوراثة ، وللحرص الداعي الى الاكتفاء بما علم وتقرر في العرف ، وللكسل المغروس في أغلب الخلق لا يتعبون انفسهم للاجادة في عملهم و يلوكون السنتهم فيمن يستلذون التعب فيه . وهناك شيء آخر يقال له الحسد يأكل قلب صاحبه ، والحسد مسألة المسائل في كل مجتمع ، والحساد يرون ان مما يسكن ثائر نفوسهم ان يطعنوا في مثل اناتول يحطون من ادبه ومكانته لانه ينعم بنعمتهما . وكل ذي نعمة محسود . وما بدر بك ان كان معظم الناقدين من الناقمين عليه لذهابه بفضل السبق دونهم ولان منهم من يحاولون اقامة بنائهم الضئيل على حساب مجده المؤثل ، ليوهموا العوام ومن يعلو فوق طبقتهم بعض الشيء انهم سباق في حلبة الأدب ، وان اناتول مهما بلغ من المنزلة وزيد بسطة في العلم لا يتطاول الى مساماتهم ولديهم العلم الجم الذي لا يعرفه ، ومن صحيح الافكار ما انفردت به أذهانهم الثاقبة . وقلما خلا مجتمع من حسد مرمض ، والمعاصرة كما قيل حرمان ، والناس معادن ، والفضل لا يخفى مهما حاول المتنطعون ستره . والشهرة ربيبة الدرس الطويل ، والبحث المتواصل ، وقلما سلب دعي شهرة غيره فاستأثر بها دونه ، او كتب له ان يتعدى طوره ، ويخرج عن مقدار حجمه .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net